جمجمة فارغة

قصة بقلم حمودة الشريف

سرت في الطريق ، استوقفني احدهم ، سألني أسئلة متعددة ، لم اجبه ، اكتفيت بالاشارة الى جمجمتي ، نظر اليها ، اشتد ضحكه لعنني في نفسه ومضى :

اعترضتني موسى تستفتيني في عملها :

انـا

« الانا » مخاضها عسير .

أريد أن أقول « الانا » .

« الانا ، والنحن » الواحد ضمن المجموعة .

الظـروف .

الظرف والظروف شيء واحد .

مشاكلي النفسية والاجتماعية .

جمجمتي وأنا شيء واحد .

يلزم النظر الى أصل الشيء بقطع النظر عن الاوصاف التي تلحقه فيما بعد .

الفراغ والامتلاء شيئان خارجان عن الجمجمة .

للمجتمع مفاهيم يكيفها كما يشاء ويتغنى بها يومه . أما الفـد فشي مجهول

مفاهيم وضعية متغيرة .

لو كانت جمجمة المجتمع نظيفة لتغيرت نظرتهم اليّ انا مجبـرة على ان اقدم للانسانية الخير والمحبة ، لولاي لوقع المجتمع في المهالك فطهارته مستمدة مني أنا .

تلمست جمجمتي ، نقرت عليها نقرا خفيفا وقلت :

لو كانت الجمجمة فارغة .

ذاك نعت من نعوت المجتمع .

اشرت الى الشرطي ، هربت وهي تلعنني قائلة :

جمجمة لا تفهم المشاكل النفسية والاجتماعية .

احسست بالفراغ حاولت ان اتناسى .

قلت لصديقي :

ـ احقا ما يقال عني .... ؟

ابتسم قائلا :

ـ ثمرة كل شجرة لا تكون في الغالب الا وقت اشتداد الحرارة .

وافقته ولكني في نفسي قلت : « غبي لا يفهم »

حاولت أن أقنع نفسي بأن النعت الذي الصقه بي المجتمع خاطيء رددت في نفسي : « .. بما أن المجتمع له مفاهيم متغيرة من وقت الى آخر ، وبما ان له تقاليد متوارثة يسير بها ولو كانت خاطئة ، فعليّ ان لا اعترف بمفاهيمه ، وعليّ ان احتقر تقاليده اذن يلزم ان اؤمن بأن جمجمتي ليست فارغة .. »

في المقهى رأيت جمجمتي على حافة الكأس .... تأملتها ... خاطبتها بلهجة عاطفية : « يا جمجمتي العزيزة ... لك الف تحية .. لك أعز ما عندي اياك ان تفتري باقوال المجتمع ، باعماله ، بحركاته »

أشرت الى الشرطي . سخر مني وقال :

ـ أتتمتع بمداركك العقلية حتى تفرض عليّ الاوامر ... ؟

قلـت :

ـ كيف تسألني هذا السؤال وأنا صاحب الجمجمة ؟

قـال :

ـ جمجمة فارغة .

قلـت :

ـ ليس لك الحق في التجسس على الاسرار .

قـال :

ـ اعطني الاوراق الثبوتية لاعرف النسبة المئوية

ضحكت ، وقلت :

ـ أنت من المجتمع .

اشتد غضبه فاعتلى الجمجمة وقال :

ـ ايها الناس ، هذه جمجمة فارغة .

انفجرت الجمجمة وتحطمت الكأس وادخلت بيتا ضيقا .

نظرت الي عجوز وقالت :

ـ شفاك الله ، يا بني

اشتد ضحكي ، سالت دموعـي ، تلمست جمجمتي فوجـدت حرارتها مرتفعة ، صحت :

ـ كل عجوز افنت عمرها في المأخور لها قصر عرضه السماوات والارض في جنة المسلمين .. »

في المدرسة صاح التلاميذ :

ـ جمجمة استاذنا فارغة !

استغربت وقاحتهم ، تلمست جمجمتي خفية ، نقرت عليها ، تبين لي صدق قولهم ، أظهرت الجد وبصرامة حازمة قلت :

ـ أنا صاحب الامر هنا ، والعلم مقصور عليّ انا ، وانتم ليست لكم القدرة على التمييز

تقدمت الي تلميذة ، ناولتني قلما احمر ، أسرت في اذني :

ـ هذه هدية صغيرة .. في الليل ضع القلم في الجمجمة ليكون الالم والتحول .

اغترت بكلامها .. كونت أملا. خرج التلاميذ ينشدون نشيـد الجمجمة الفارغة .

قال لي رئيس المعهد :

ـ أحقا ما يقول عنك التلاميذ ؟

ـ ليتهمني كل متهم .. أنا أعتقد أن الزمن الحراري سيأتي عما قريب ، وسيطلبون مني العفو

* * *

كنت في البحر أسبح .. انتبهت .. عرفت أن جمجمتي فارغة .. حاولت أن ارجع الى الشاطيء .. كانت مدينتي خالية. ضحكت وقالت:

ـ رئيسنا جمجمته فارغة .

قطبت جبيني ، قالت :

ـ مسكين رئيسنا ، ليس قادرا على تنظيم الاوامر .

وقفت امام الجمهور ، نظمت ربطة عنقي ، وضعت النظارات ،

تنحنحت ... صفق الجمهور ، شربت قليلا من الماء قلت :

ـ « أيها الجمهور ... أيها الجمهور ... أيها الجمهور . »

صفق الجمهور ، تلمست جمجمتي ، طفقت أكرر الجملة ، كان خطيب آخر في ركن من القاعة يلقي خطبة عاطفية .. حاولت الا انتبه اليه ، كان الجمهور يصفق ، ينتظر ما أقوله ، حاولت أن أتكلم ... أن أنظم جملة أرضي بها عواطف الجمهور .... اخيرا قلت لهم :

ـ هوذا أنا في ركن القاعة .. انظروا اليّ كيف أخطب ....

صفق الجمهور ، تنفست .. ضحكت ضحكة عريضة .. شعرت بارتياح .

* * *

قال بعض الناس : انه مجنون ، وآخرون قالوا : انه رجل معقد، وآخرون قالوا : انه تفلسف كثيرا فجن . واخرون قالوا : انه من سلالة مجانين ، واخرون قالوا : انه من يوم ان وقع له ذلك الحادث اصبحت تعتريه حالات جنونية ، كثر القول ، نظروا اليّ مليا ومروا ضاحكين .

جمجمتي أصبحت مشكلة لي ، يدي دائما تتلمسها . حاولت أن أقرأ كثيرا ، أن أطالع كثيرا عل شيئا ينبت في ركن من أركان الجمجمة في الليل لم استطع النوم . فرحت وقلت :

ـ عله ألم التكون أو ألم المعرفة .

في الصباح وقف الشرطي أمامي في المرآة ، حاولت أن اتناساه ، قال لي :

ـ انك متهم بما نويته البارحة .

قلت :

ـ وهل يحاسب الانسان على ما ينويه ؟

قال :

ـ الاعمال بالنيات .

ضحكت كثيرا .. ضربته على رأسه .. انفجر عقله صائحا :

ـ كنت ، يا سيدي ، ليلة كاملة تحاول أن تنشيء شيئا ... شيئا سريا خطيرا .. وانا مكلف بالقبض عليك .. ارجو ان تسمح لي بذلك

قلت :

ـ لست أنا الذي أردت . أنا احسست بالم في الجمجمة وهي المسؤولة عن ذلك .

قال :

ـ أنت والجمجمة شيء واحد .

قلت :

ـ فلنعتبر هذا الالم الذي في الجمجمة جريمة فهي لم تتجاوز ذاتي والقانون لا يعاقبني على ذلك .

قال :

ـ ألم جمجمتك لم يقتصر عليك انت ، فالجماجم الاخرى أصابها تصدع .

قلت :

ـ أهذا عمل يخالف القانون ؟

قال :

ـ القانون لا وجود له ، انا الذي صنعته . وانا اصنعه كما اريد واقول لكم : هذا هو القانون .

قلت :

ـ اذن لا يحق لي التنفس والشعور بالهواء الخارجي .

قال :

ـ الشعور بالهواء الخارجي او مجرد التفكير فيه يعد جريمة اجتماعية خطيرة يعاقب صاحبها بالشنق

كان الشبان يصفقون ، قلت لهم :

ـ أهكذا تسكتون على فعله ؟

قالوا :

ـ ماذا ترانا فاعلين ؟

قلت :

ـ ايحق له ان يتهمني !. سيأتي دوركم !

انهالت علينا الحجارة ... نظرت حولي .. ألفيت جمجمتي ملقاة على الارض ، حملتها وانا أردد : « مسكينة أنت يا جمجمتي ، يتهمونك بالفراغ وأنت تحملين هم العالم »

اضطربت جمجمتي ، سعادة وخوف في آن واحد ... كانت المغامرة صعبة .. خرجت من نافذة من نوافذ جمجمتي أضواء كاشفة غمرتني ، صعقت اعصابي .

* * *

نظر اليّ رئيس المحكمة ، ضحك ، ضحك الجمهور ، تلمست جمجمتي ، تجمهر الذباب فوق رأسه الاصلع ، كان فأر يجري وراء قط صرعت امرأة من الجمهور ، تقدم شرطي بتقرير يبين جريمة القط :

ـ كان عليه الاستسلام والامتثال لاوامر الفأر أحسن من أن يدخل الفزع في قلوب الآمنين .

قفزت صاحكا :

ـ ما أغبى الآمنين !

قال الرئيس :

ـ « .. وحيث ان القط لم يتأدب وحيث انه لم يظهر الاحترام

وحيث انه أدخل الفزع على المرأة

وحيث انها ولدت أربعة توائم

وحيث ان هذه الاعمال منافية لمباديء المحكمة

فقد تقرر :

ان يعدم الذباب .. »

استوى الشرطي قائما فوق صلعة الحاكم .. أطلق النار .. اهتزت الجماجم فرحا .. انفجر الدماغ ، فتصاعد منه الدخان وقال الرئيس « تعلق ميدالية ذهبية لهذا الشرطي نظرا لاجتهاده وحزمه في خدمة الوطن »

* * *

ذات مرة غافلت والدي وخرجت راكضا وصحت في أبناء الحومة:

ـ « تعالوا ... تعالوا ... »

انصتوا اليّ وأنا أحرضهم على البطش بسيدنا المؤدب والثورة عليه .

صاح المؤدب :

ـ اقرأوا .

نظرت اليه وضحكت ، صحت في وجهه :

ـ « مؤدب مجنون ! »

صاح التلاميذ :

ـ « مؤدب مجنون ! »

قلت :

ـ انه لا يفهم ما يقول .

رددوا :

ـ انه مجنون .

قلت :

ـ انه كبغل الطاحونة .

رددوا :

ـ انه مجنون .

دخلت الكتاب خلسة ، وجدت عليا متجها نحو الحائط وسيدي المؤدب فاتح ازرار سراويله ، صحت :

ـ « مؤدب مجنون »

احمرّ وجهه ، بصق عليّ وقال :

ـ أتتهم سيدك الذي يعلمك الاخلاق ؟

صحت في وجهه :

ـ أنت مصدر الايمان وبيدك مفاتيح جنة الآخرة .

في الصباح وجدت أن المؤامرة التي خططها أبي والمؤدب قد نفذت تلمست جمجمتي .

اشار الي الاستاذ « أن افتح الباب » فتحته .

قـال :

ـ من فتح الباب ...؟

قلـت :

ـ أنـا

قـال :

ـ انها قدرة الله

فلت ساخرا :

ـ بشهادة التلاميذ أنا الذي فتحته بيدي هذه يا سيدي .

قـال :

ـ الله هو الذي أعطى ليدك القدرة لتتحرك .

قلـت :

ـ أنا الذي أتحكم في حركاتي ، وأنا مسؤول عن نفسي .

قـال :

ـ ستحاسب عسيرا .

قلـت :

ـ ان عذابي شديد ، فانا جائع ، وأبي مريض ، واخوتي صغار ، وأمي مطلقة

قـال :

ـ هذا في الدنيا . أما في الآخرة ...

قلـت :

ـ وهل الآخرة شيء آخر ؟

قـال :

ـ عذاب جهنم شديد

ضحكت .. ضحك التلاميذ .. تلمست جمجمتي .

احتد قائلا :

ـ كيف تتصور الجنة والنار ؟

قلـت :

ـ كما يتصورها العقلاء .

قـال :

ـ أقصد كيف تتصورها انت ؟

قلـت :

ـ أيعقل ان تكون في الجنة الحور العين وانهار من عسل وثمر مشكل الالوان ؟ واذا افترضنا ذلك فاين ستوضع زبالة الآكلين ؟ ولماذا تبدل جلود الكافرين في النار ؟

على هذا المفهوم يصبح لا قيمة للخلود والنار !

وضع أظافره في وجهي ، وصاح :

ـ تلميذ كافر ، عليك اللعنة الى يوم الدين

من أعلى المنبر صحت :

ـ ايها الناس ، ان الجمجمة تقول : « ان الله لم يخلقنا بمحض ارادته ، انه مجبر على ذلك . »

ـ اشتدت الحرارة ، كان التفجر .

قال لي الرئيس :

ـ اينها الجمجمة الفارغة، المزعجة، اعلني عن توبتك امام الجمهور

قلـت :

ـ حضرة الرئيس المحترم ..

قـال :

ـ لا أريد خطبا .. انتهى عهد الخطب .

قلـت :

ـ سيدي الرئيس . ان عدد السبعة يشغل الجمجمة ، فانـا أريد أن أفهمه .. فلماذا خلقت السماوات والاراضي في سبعة ايام ولم تخلق في يوم واحد ؟ ولماذا عدد ايام الاسبوع سبعة ؟ ولمـاذا السماوات سبع ؟ والاراضي سبع ؟ وايام فرحة الزواج سبعـة والسبعة في لعب الورق لها قيمتها ؟

قـال :

ـ سبحانه لا يسأل عما يفعل ، اعلن عن توبتك ..

قلـت :

ـ نور الشمس ضروري ، ورائحة الزهرة ضرورية ، ووجودنـا ضروري ، فالله شمس ونحن أشعتها . والله زهرة ونحن رائحتها . اذن ليس من المعقول أن تكون شمس بدون أشعة . واذا انتفت الاشعة انتفت الشمس ، فاذا كانت القيامة لا يكون لوجود الله معنى ، ولذلك فلا أتصور ان يكون يوم قيامة ...

كان الجمهور خارجا من قاعة المحكمة وهو يحمل جنازة :

رحمان يا رحمان هذا عقلك واليوم يا رحمان قاصد فضلك

انتشيت وأنا استمع الى أصواتهم المنخفضة المرتفعة ، الناتئة ، اللينة . تلمست جمجمتي .. قفزت فوق القبر صارخا

* * *

قلت لامي :

ـ أحقا ما يقول أبي عني ؟

داعبت شعري وقالت :

ـ ستكون عظيما .

قلـت :

ـ ومتى ، يا أماه ؟

ناولتني قطعة حلوى وقالت :

ـ عندما تكبر وتصبح عاقلا ولا تثور في وجه مؤدبك

قلت لها :

ـ ان أبي يعيرني دائما ... أنا أكرهه

قالت :

ـ والدك يحبك ... جمجمتك ليست ....

شد أبي وثاقي .. ضربني .. بكت امي .. هددها بالطـلاق .

قال لي :

ـ كل الناس يشكونك ، انك مجرم ، اذا لـم ترجـع عن غيـك فساعرف ما افعل لجمجمتك .

في الليل حركت جمجمتي فاذا هي ثقيلة ، فرحت وقلت فـي نفسي : « امن كل مكذاب ، أبي غير قادر على ما قاله ، ان جمجمتي ليست فارغة ولا يمكن ان تفرغ ، اني أعقل أن والدي كذاب ، فـاذا عقلي موجود فيها ، ولو كان غير موجود لما أدركت أن والدي مكـذاب ولما ادركت افعال المؤدب .

صحت بأعلى صوتي :

« جمجمتي ليست فارغة ! »

فتح والدي الباب .. أنار البيت ، تناومت .

* * *

صاح الناس :

ـ .. يا سيدي « تليل » !

تقدم عجوز الى التابوت يتمسح به ، وهو يبكي . امرأة محمولة على الاكتاف قالوا ان الجن صرعها ، بخور يتصاعد ، تضرع الى الولي

قالت لي أمي :

ـ قبّل التابوت عل الولي يرضى عنك فيشفيك .

قلـت :

ـ أحي هو أم ميت ...؟

قالت :

ـ لا تضحك على الاولياء .

صاح الناس :

ـ « جمجمة فارغة ! »

قال الرئيس :

ـ « وحيث انك لا تؤمن بالجن

وحيث انك لا تؤمن بالاولياء

وحيث انك بلت فوق التابوت

وحيث انك جمجمة فارغة .. »
قلت :
ـ « حيثياتكم جمل محفوظة لا معنى لها ..
وجدت امي في ثياب شفافة ، نظرت اليّ وقالت :
ـ اني امك ولا يحق لك ان ....
قلت لها
ـ هذا هو منطق الحياة
قالت :
ـ انا ما أزال في عهد المراهقة وانا اصغرك بعشر سنوات .
قلت :
ـ القانون يقول ما كان محرما بالامس يتغير اليوم ويصبح حلالا.
قالت :
ـ القانون هو القانون .
قلت :
ـ حواء بنت آدم ومع ذلك عمرا الكون .
كانت اختي واخي في خلوة غرامية صفقت وقلت :
ـ « كذا الحياة العصرية »
صلوحة وحفيدها يتعاتبان :
ـ منذ ان كنا صغارا وانا ...
ـ انا أكثر منك
ـ هل تذكر العهود ...؟ كنا نمارس الغرام تحت الشجرة
ـ لله ما أحلاها ....!
ـ تغيرت كثيرا يا حبيبي
ـ الله يعلم ، لم أخن العهد
ـ كيف حال سفراتك ...؟
ـ سفرات سندبادية
كانت امي والاخرون يصيحون :
« جمجمة فارغة ! »

* * *

قلت لشيخ الحومة :
ـ باسم قرن الحريات
صاح الاطفال :
ـ رجل مجنون
صحت :
ـ لي الحق في التمتع بكامل حقوقي
صاح الاطفال :
ـ رجل مجنون
قالت العجوز لحبيبها الصغير :
ـ انت أعز ما عندي . ساهبك شبابي .
قال لها :
ـ رغم شيخوختي وصغر سنك فاني أجد متعة في الجلوس اليك
قال لي الشرطي :
ـ انت المسؤول يا سيدي .
قلت :
ـ عم ....؟
قال :
ـ لم تنم البارحة . وهذا مخالف للقانون كما تعرف .
قلت :
ـ ما هو القانون ... ؟
قال :
ـ القانون هو القانون .
قلت :
ـ زكام اصاب جمجمتي .
صاح الاطفال :
ـ « جمجمة مزكومة ! »
قال الشرطي :
ـ كثرة الذباب تقلقني
قلت :
ـ شان الحياة
قال لي حاكم التحقيق :
ـ الانكار لا يفيدك شيئا
نظرت اليه ضحكت ، تلمست جمجمتي .... نقرت عليها . قال :
ـ يلزمك الاعتراف .
قلت :
ـ اعترف أنك ستكون في يوم الآخرة حاكما في الجنة التي بشر بها المؤمنون .
قال :
ـ جزاك الله خيرا .
قلت :
ـ جمجمتي ليست فارغة .
قال لي السجان :
ـ رايت البارحة فارا ياكل قطا .
قلت :
ـ تلك هي الحقيقة .
جلدني حتى الموت ، تلمست جمجمتي ، ضحكت ، شكرته على صنيعه وقلت :
ـ لم ار عظيما مثلك . وأعتقد أن ربك سيجعلك في يوم الآخرة جلادا للمؤمنين
قبّلني وبكى وقال :
ـ وان عمل الآخرة خير وابقى .
كان أبي والاستاذ والمؤدب وشيخ الحومة والجموع يصيحون :
ـ « جمجمة فارغة ! »
بين الحين والآخر كنت احس بوجع يداخل جمجمتي .. فرحت

* * *

أحسست بدويّ ورائي ، خفت الاصطدام ، نظرت في مرآة السيارة رأيت مدينتي خربة تأكلها الجرذان ... بكيت ، انفجر الزمن الزمن الحراري .. انطلق دخان من الجمجمة ما لبث ان تكور على نفسه فكان العملاق
قال الراوي :
« حفر الفار جحرا في صلعة الحاكم . وطار الذباب وانتهى . كان ياما كان . وغرق السندباد وتحطمت سفينة « اوليس » على شواطيء جربة ، وأدرك شهرزاد الصباح ، وجن هارون الرشيد ، وانتشرت الجماجم المتصدعة في انحاء العالم . »
كان القوم يرددون :
« رحمان يا رحمان هذا عبدك والبوم يا رحمان قاصد فضلك »
حاولت اللحاق بهم . احسست بثقل منعني عن القيام ، تلمست جمجمتي فاذا هي نوافذ مفتوحة على أجهزة الاعلام تعزف موسيقى الضياع .

حمودة الشريف

استاذ بمعهد ترشيح المعلمين
بالقيروان